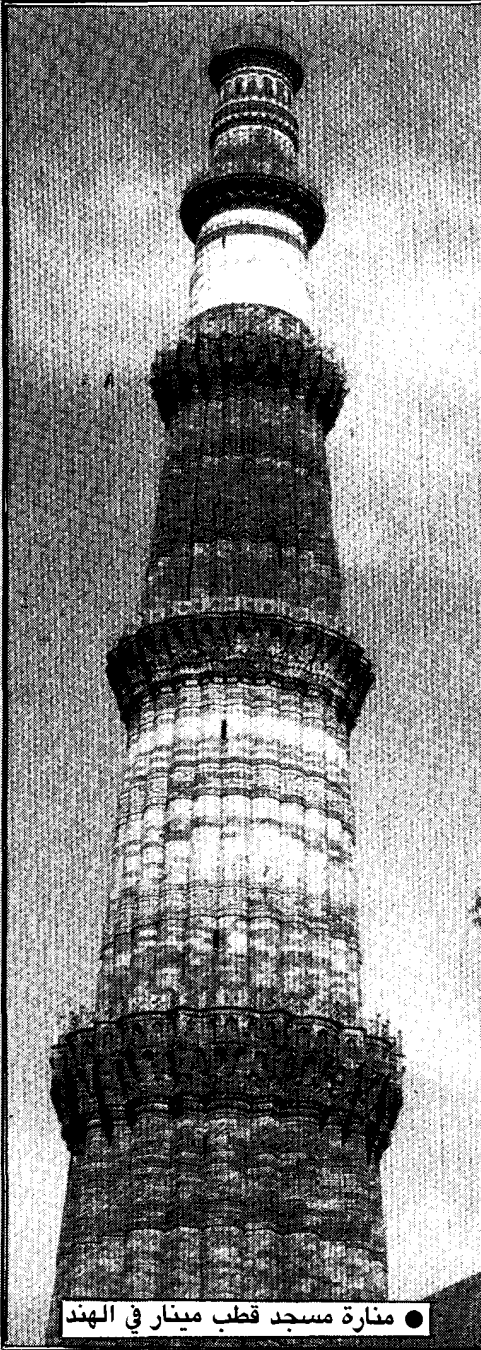


تأثير العرب على مؤلفات

ابن خلدون هو الأَب الأول للتفسير

لعب العرب دوراً حيوياً وغيروا مجرى التاريخ الانساني في القرون الوسطى وقد حاولوا نشر فكرتين هما توحيد الله والوحدة الانسانية من سواحل المحيط الأطلسي في الغرب الى جزر الباسيفيك في الشرق مما رفع مكانتهم الى مستوى مرموق في المجالات الفكرية والعقلية ومنحهم درجات من القوة والحكمة والبصيرة ليبنوا حضارة استوعبت الأفضل من الشرق والغرب على السواء ، لقد جعلت روعة أدبهم وإبداع علومهم وعمق فلسفتهم ومثلهم الإنسانية في نظمهم الإجتماعية وعظمة فنونهم وهندستهم المعمارية التي قدموها للإنسانية جمعاء من «بغداد مدينة للمجد» ومن (قرطبة جوهرة) وفضلاً عن ذلك حاول فقهاؤهم إنشاء نظام قانوني مفصل ودون علمائهم نظاماً في حسن السيرة والسلوك كما حاول فلاسفتهم شرح القيم العليا ووصل رجالهم الى أقصى مناطق العالم وصنع فنانونهم وحرفيوهم المهرة أروع نماذج الجمال النادر وأكثر من كل ذلك قام علماء تاريخهم من أمثال ابن خلدون بتحليل علم الحضارة وهكذا نجد منجزاتهم العظيمة العديدة التي تثبت مجد العرب .

بقلم : البروفيسور الشيخ علي



● منارة مسجد قطب مينار في الهند

المؤرخين الهند

الاجتماعي للتاريخ

في مدرسة

ابن خلدون ..

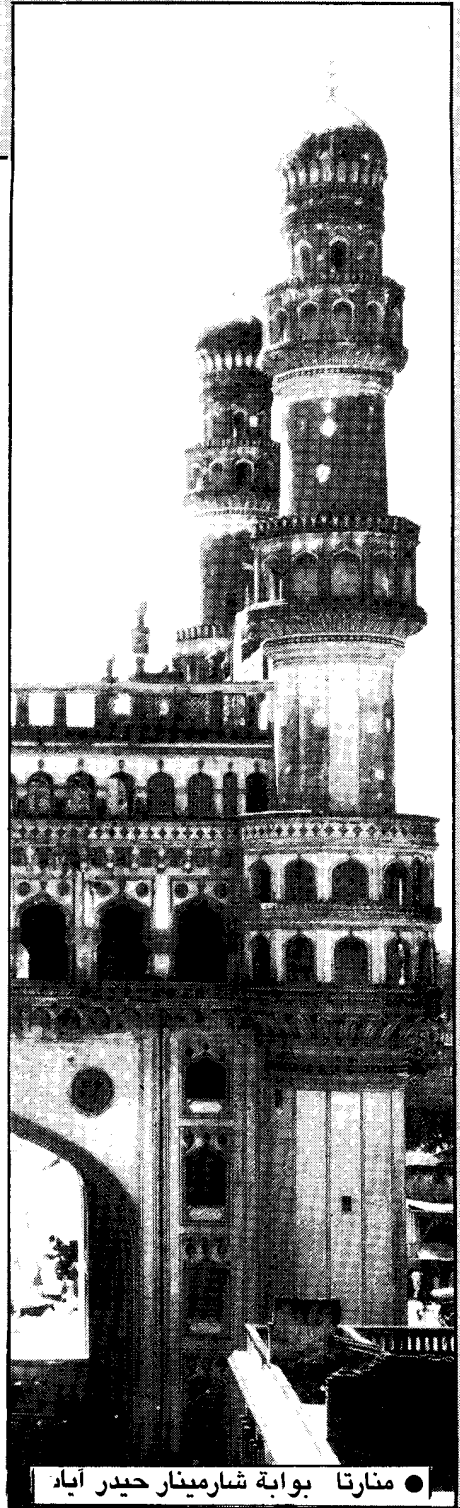
لنظام ما كس

وسان سيمون

وسبنسر وهيجل

ويحاول هذا البحث ان يلقي بعض الضوء على مساهمتهم في مجال التاريخ وتأثيرهم على تدوين التاريخ في شبه القارة الهندية .

لقد شعر العرب على نحو صحيح ان تجاهل أحداث الماضي معناه البقاء في مرحلة الطفولة . وكانت دراسة التاريخ احدى الدراسات التي اهتم بها العرب ضمن أنشطتهم الفكرية والعقلية . وكان الرسول الامي (ص) شديد الرغبة في التأكيد على أهمية العلم فأثار إهتمام العلماء بفروع العلم المختلفة بأحاديثه الشريفة مثل «ان ساعة من التأمل في خلق الله أفضل من سبعين سنة صلاة و «ان الاستماع للعلم والحكمة لمدة ساعة أفضل من حضور جنازة ألف شهيد أو إقامة الصلاة لألف ليلة» ونتيجة هذه التعاليم أخذ المسلمون يبذلون عنايتهم في الاهتمام بالعلوم التي كانت لها صلة خاصة بالحياة العملية اليومية وشهدت هذه العناية تطوراً هاماً في الأدب والفن والطب والرياضيات والكيمياء والجغرافية والتاريخ وألف المؤرخ العربي الطبري كتاباً تاريخية قضى في كتابتها ٤٠ سنة بمعدل ٢٨ صفحة يومياً ونقصر حديثنا هنا على تأثير العرب على تدوين التاريخ الهندي ذلك لأن العرب كانوا همزة الوصل بين المؤرخين الرومان والاغريق ومؤرخي العصر الحديث . وسواء كان الدافع وراء ذلك هو الكنيسة أو تدوين التاريخ الا ان



● منارتنا بوابة شارمينار حيدر آباد

المفكرين . وكانت مساهمة العرب في فن تدوين التاريخ لا يستهان بها فقد كان لديهم احساس قوى بالتاريخ وكانوا مثل الرومان قد بنوا إمبراطورية امتدت أقاليمها عبر ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقيا وهكذا صنعوا التاريخ في وقت مبكر قبل ان يبدأوا في كتابته .

وأخذت مساهمة العرب في فن تدوين التاريخ ثلاثة اتجاهات :
أولاً : كانوا شديدي الحرص على تفحص المصادر ببالغ الدقة وسموا تقنياتهم في ذلك بـ «الاسناد» الذي كان مكوناً من سلسلة من المراجع والمصادر نقلت المعلومات عن طريقها من العصور القديمة الى العصور الحديثة .

ثانياً : سرد الأحداث التي ذكرها الرحالة وتمتاز هذه الروايات بأنها ذات ثقل في مضامينها ومعلوماتها ونابضة بالحياة في وصفها لانها كانت مبنية على مشاهداتهم الشخصية .
ثالثاً : تقديمهم فلاسفة كباراً في التاريخ كابن رشد وابن خلدون وقد وضع ابن خلدون أسس علم الحضارة وقام بتحليل بعض المسائل المعقدة مثل تأثير البيئة على الإنسان والتحقيق في نشوء وتطور المجتمع ودور العنصر النفسى في السلوك الإنسانى وتأثير العوامل الطبيعية والحاجات المادية على تقدم الإنسان وقد أورد ابن خلدون بوضوح العناصر التي ساعدت في نشوء الحضارة وقام

المحرك الرئيسي كان هو مشيئة الله وان وجدت فجوة خلاف بين الاثنين . ولم يفرق العرب بين التاريخ الدنيوي والوثني ، وكان النظام الكنسى المرتكز على العزوبة والرياضة الروحية والزهد غير موجود في الاسلام فقد اهتم الاسلام اهتماما كبيرا بالدنيا مثل اهتمامه الكبير بالآخرة واذا كانت المسيحية تجعل من المسيح حلقه الوصل بين الانسان المحدود والحقيقة الأبدية فإن الإسلام يجعل هذه الصلة ممثلة في الخير والايمان بالله والعمل الصالح ، واذا كانت النجاة في المسيحية تأتي بواسطة المسيح فإنها في الاسلام تعتمد على عمل الخير ومعرفة الخير من الشر .

وقد حددت الفلسفة الأساسية لهذين الدينين موقفهما تجاه تدوين التاريخ . فهذه الدنيا عند المسيحي ذات أهمية ما لكنها ليست فاصلة أو حاسمة وهي لدى المسلم فاصلة وحاسمة ولكن ليست نهائية . وكان لهذين الموقفين تجاه الحياة تأثير قوى على التاريخ .

وكان تدوين التاريخ العربي يعتمد الى حد كبير على التقاليد الاغريقية التي كانت لها جذور عميقة في العقل وكان المفهوم الضمنى لهذا التصور ان الانسان يساهم بعقله في دراما الحقيقة الأبدية بقدر اعتماد أفكاره على الحقيقة من هنا جاء من بين العرب مؤرخ جليل مثل ابن خلدون الذي يعترف به العالم كأحد عمالقة

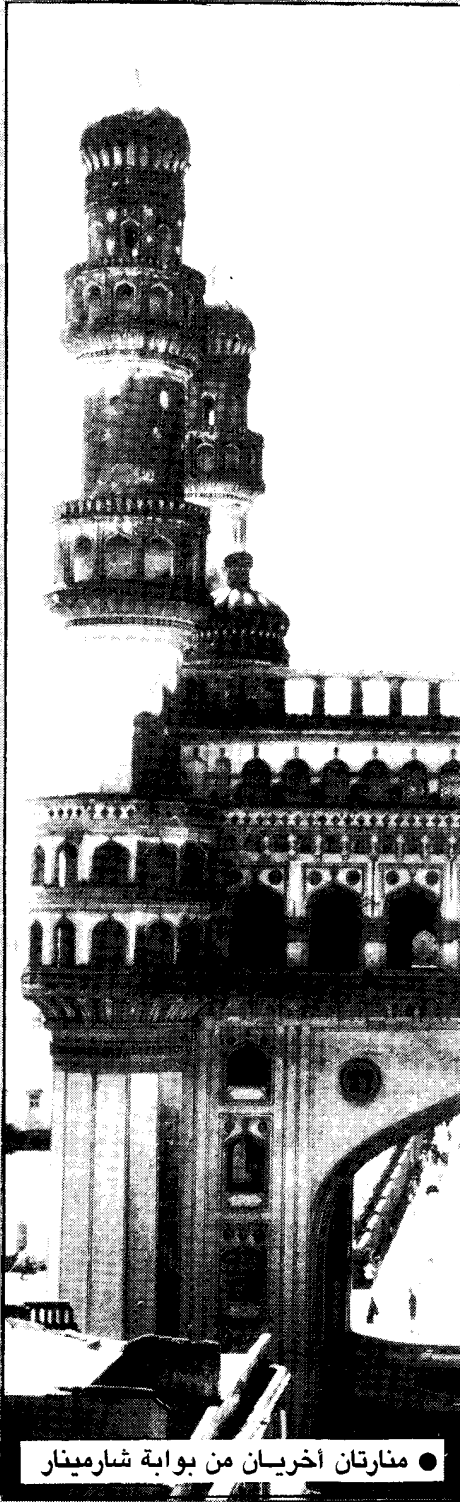
بتصنيفها تحت أربعة عناوين رئيسية وهي العناصر الطبيعية أو الحاجات المادية والعامل الرسمي أو المؤسسات السياسية والعنصر الفعال أو النسيج الاخلاقي وأخيراً العنصر النهائي وهو الهدف أو تحقيق المثل العليا .

وكان لسيرة الرسول (ص) تأثير حاسم وقاطع على كتابة التاريخ عند العرب . وكان المؤرخون القدماء يتناولون الأحداث الهامة بصورة منعزلة مثل (الغزوات النبوية) ومعركة الجمل ووقعة صفين . وكتب ابن اسحاق (ت ٧٦٧ م) عن حكم البيت الأموي . وكان العرب مثل سائر الشعوب السامية متشددين في تمسكهم بدقة بعلم الانساب وكانوا حريصين على التقيد بالإسناد الذي ساعدتهم كثيراً على تتبع تسلسل الحدث وصولاً الى شاهد عيان للحدث نفسه أو مشاركين فيه .

وكانت هذه الطريقة تتميز بنظام دقيق في تحديد التواريخ . ويبتدىء التسلسل الزمني الإسلامي من سنة الهجرة في عام ٦٢٢ م . وقد مهد هذا العهد ، الطريق الى الاتساق في التسلسل الزمني والبساطة بالمقارنة الى التسلسل الزمني المسيحي المربوط بالقرون الوسطى حيث يبدأ العام الجديد من أول يناير أو أول مارس أو ميلاد المسيح (٢٥ ديسمبر) أو عيد الفصح وهو موعد غير ثابت وقابل للتغيير .

وقد كتب ابن هشام أول سيرة

للنبي (ص) حوالي عام ٨٢٨ م وكان ذلك بشكل سرد الأحداث متطابقاً مع التقاليد الدينية السائدة حينذاك ولقد كان الجهد والتفاني الذي بذله العلماء في جمع الأحاديث النبوية وتحقيقها لا مثيل له في مجال التدوين العلمي في التاريخ . وتضمنت سيرة النبي (ص) وأحاديثه منجماً ثميناً من المعلومات وقدم لنا الحماس والعناية البالغة والموضوعية التي بذلها العرب في تنظيمها من جديد خلاصة وافية واسعة موثوقة لا يوجد مثلاً في أي مجموعة من التراث للإنسانية جمعاء في أي جزء من العالم . وقد اتبع العرب أسلوباً علمياً دقيقاً لتحخيص المراجع والمصادر حتى لم يبق أي مجال لإدخال مصدر تنقصه الدقة . واخترع العرب أسلوباً خاصاً في كتابة السيرة أصبح شائعاً في الهند وهو «الطبقات» وطبقاً لهذا الأسلوب تم تدوين تاريخ الأشخاص ليس بالترتيب الأبجدي وإنما بالترتيب الزمني . وكان العرب معجبين بالأحداث والحكايات النادرة وأقبل الهنود أيضاً عليها بحماس . وماكتبه ياقوت الحموي تحت عنوان «قاموس العلماء» هو كتاب ممتاز من ناحية العلم والمعرفة وعلى الرغم من أن تدوين التاريخ العربي رسم السير الإنسانية بوضوح أكثر ووصف الأحداث السياسية والعسكرية بدقة أكثر وبلغة خلاصة إلا أنه تجاهل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية .



● منارتان أخريان من بوابة شارمينار

ولم يتتبع تطور المجتمع ولم يحلل أو يفسر الأحداث حتى جاء عصر ابن رشد وابن خلدون . واكتفى المؤرخون العرب المتقدمون بمجرد جمع الحقائق وترتيبها وسردها بصورة جذابة وتركوا للقارئ الخروج بالنتيجة التي يراها وكان هذا الأسلوب رائجاً لدى المؤرخين الهنود في عهد السلاطين والمغول . ومن سوء الحظ لم يتبع المؤرخون الهنود أسلوب ابن رشد أو ابن خلدون بل اكتفوا بأسلوب ابن هشام والطبري فعالجوا في تاريخ الهند موضوع الحروب والغزوات أكثر من معالجة قضايا السلام والحضارة . وفي أغلب الأحيان كانت الأحداث توصف بأنها نتيجة الفتن أو طموحات السلاطين والقادة أو رجال البلاط الملكي دون تفسير القوى والتيارات التي كانت وراء هؤلاء القادة أو هذه الأحداث وكان الغرض من كتابة التاريخ عند المؤرخين سواء كانوا من العرب أو الهنود في العصر الاسلامي هو تلقين درس للإنسانية ولكن هذا الدرس كان في الغالب درساً في الأخلاق والتبصر في السلوك الانساني لادرسا في التاريخ أو الحقائق التي ترتبط الواحدة منها بالآخرى وفقاً لنظام منطقي او دائم . ومن هذه الناحية لم يتبع المؤرخون المسلمون أو الهنود ابن خلدون الذي أخذ بعين الاعتبار القوى الكامنة في تكوين التاريخ من وجهة نظر اجتماعية ونفسية .

ويعتبر ابن خلدون التونسي (ت ١٤٠٦) دون شك من اكبر مؤرخي العالم وأكثر النجوم بريقا وسط علماء التاريخ وهو يعتبر «ثوكيديديس» أو «ليفى» الاسلام بل أعلى منهما منزله وكان أول عالم تبنى فكرة عالمية التاريخ وتناول بعمق علم الحضارة وحاول ان يقدم نظرة شاملة للتاريخ في كتابه الشهير «المقدمة» وهو مقدمه لتاريخ العالم أو «كتاب العبر» حيث شرح فيه العناصر الأربعة الأساسية وهي المادة والسلطة والكفاية والغاية وأثرها في تطور الحضارة . وأثبت بأسلوب منطقي «أن الموارد المادية المكونة من الأرض والعمل والتربة والمناخ والمعادن والغذاء والمرافق المادية «تشكل قاعدة» لنمو الحضارة وتحتاج هذه الموارد الى وسيلة الذكاء الانساني المثلة في النظم السياسية القادرة على إستغلال الموارد المادية لنفع الانسان باحسن صورة واذا كان العنصر الفعال أو العنصر الأخلاقي المكون من الوحدة والانسجام والتضامن يعمل كمحرض للمجتمع الانساني ليتحرك الى الامام ويحقق التكامل إلا أن السبب الأخير أو الهدف أو القضاء والقدر أو المثل العليا يحدد غاية الحياة ويعطي معنى لأفكارنا ويحول طاقاتنا الى اتجاه الصحيح كما يحول مجرد الفكرة الى حقيقة وطبق ابن خلدون هذه المبادئ على نمو الحضارة الاسلامية وأوضح بان هذه المبادئ تعمل في كافة

المراحل . وقد أصبحت هذه العناصر الأربعة في أوروبا في وقت لاحق الاساس لأربع مدارس فكرية مختلفة ورأى ابن خلدون بأن اجتماع هذه العناصر الاربعة معا يؤدي الى نشوء الحضارة .

وقد جعل الماركسيون من المادة أساساً لأيدولوجية الشيوعية . وطور المفكرون الإنجليز من أمثال «هربرت سبنسر» نظرية العضوية الى العنصر الرسمي في القيادة السياسية ، وإستخدم المفكرون الفرنسيون من أمثال «سان سيمون» العنصر الفعال في التضامن الانساني لتقديم فكرة الدولة الاشتراكية . والفلاسفة الألمان من قبيل «هيجل» قدموا نظرية «مثالية» مبنية على عنصر الغاية النهائية أو مصير الانسان . وخلصه القول فإن ابن خلدون هو أبو التفسير الاجتماعي للتاريخ وهو الذي قدم للعالم لأول مرة تفسيراً اجتماعياً وإقتصادياً للتاريخ . ويضع علماء السياسة كتابات ابن خلدون في مستوى «أرسطو» ورفع الاخلاقيون مرتبته الى «كولومبس» في تفسيره الاخلاقي للتاريخ . ويعتبره الفلاسفة مخترعاً لأسلوب جديد في التفكير المثالي في التاريخ . ويكفي أن نذكر ان تفسيره الانتقادي الدقيق للحقائق وعمق تفكيره وبعد نظره وروعة أسلوبه في الكتابة جعلت للتاريخ مكانته المرموقة والمشرقة التي نشاهدها في أوروبا هذه الأيام . وكان

ابن خلدون مؤرخاً ومفكراً سياسياً وعالمياً في الاقتصاد والاجتماع وفيلسوفاً بارعاً لا يمكن وصفه الا بكلمة «العبقري» .

وعقب هذا الاستعراض السريع لتدوين التاريخ عند العرب فلننظر الى تأثيره على المؤرخين الهنود المسلمين وكان في طليعة من تأثر به تأثراً عميقاً سلطنة دلهي التي مثلت عصراً جديداً في كتابة التاريخ في الهند . وأخذت هذه الكتابة صيغة تدوين الأحداث وحسب قول «دودويل» كانت أحسن بكثير من كتابة الانجليز للأحداث في القرون الوسطى .

عندما جاء المسلمون الى الهند كان عندهم فعلاً فكرة عن التاريخ ناتجة عن إتصالاتهم بالشعوب في كل من اليونان وروما واسبانيا وتركيا وايران ومصر وآسيا الوسطى والجزيرة العربية . لذلك عندما بدأوا كتابة التاريخ في الهند اختلف أسلوبهم عن الاساليب الخرافية واللاهوتية والقصصية التي كانت سائدة في الهند القديمة وتطورت هذه الكتابة الى الاهتمام بالمنطق والموضوعية والحمية في عهد السلاطين واتخذت صيغة «ليفى» و«تاسيتوس» الرومانيين اللذين كان لهما تأثير على العرب بحفزهم الناس على القراءة بواسطة أسلوبهما الخلاب .

وقد حافظت الهند على التقاليد العربية في عدم اعطاء التاريخ المكانة العليا في الحياة الثقافية وإنما وضعته

في المرتبة الثانية بعد الدين والفلسفة . وعلى الرغم من ان دراسة التاريخ اعتبرت ذات أهمية وإحترام في تربية الاشراف والأعيان والأمراء الا انها بالنسبة الى الرجل العادي ، مثلث امراً ثانوياً وكانت الأولوية عنده لدراسة القرآن والحديث . غير ان السلاطين أبدوا إحتراماً للمؤرخين يتساوى مع احترامهم لعلماء الدين والشعراء . ولم يعتن المؤرخون الهنود بمتابعة نظام «الاسناد» بنفس الدقة التي اتبعها المؤرخون العرب بارجاع المصادر والمراجع الى أصولها اي الى شهود عيان . وهكذا سقط نظام الاسناد ضحية لعدم الاعتناء به في الهند . وتبنت الهند التقليد الفارسي مدح الملوك وكان النظام الفارسي يعتمد على «المصدر» و«المخبرين» الذين ينقلون المعلومات دون تحقيق أو تمحيص بواسطة تكرار أقوال اشخاص مجهولين دون التأكد من المكان الذي قيل فيه الكلام المنقول ودون التأكد حتى من صحة الكلام نفسه وكان هذا الأسلوب مخالفاً لأسلوب العرب واكتفى المؤرخون الهنود بمجرد نقل المعلومات التي وصلتهم دون تحقق من صحتها كما لم يمارس المؤرخون الهنود أساليب الاستفسار والنقد وتتبع الأصول والبحث عن شهود عيان والاساليب الاخرى التي ابتكرها العرب . فلم يكن تدوين التاريخ في عهد السلاطين بالهند إلا سلسلة من

الأحداث والأعمال والقصص والمعارك والوقائع والحملات ووصف البلاط الملكي دون أدنى إشارة إلى الأسباب والأوضاع والأجراءات والدوافع الكامنة وراء الأحداث . ولم يكن الرجل العادي موضع اهتمام وإنما اتجه الاهتمام إلى الأعيان والأشراف وأعضاء الحكومة المركزية والملوك والملوك والأمراء والمدن . والتأثير العربي الوحيد الذي استمر حتى ذلك الحين كان في الناحية الدينية . وكان يعتقد أن التاريخ هو مصدر أساسي للتربية الأخلاقية وأن الله تعالى مسئول عما حدث في التاريخ وساد الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى يعمل عن طريق الأفراد وليس عن طريق الجماعات أو القوى الاجتماعية أو الروح العصرية أو الحركات . ولم يتبع المؤرخون المسلمون في الهند تقاليد مذهب المعتزلة الذي كان قائماً على العقل بل اتبعوا مدرسة الأشعرية التي اعتقدت أن الحاضر يتبع الماضي زمنياً لكنه ليس نتيجة الماضي وأنه ليس هناك في الطبيعة أي نظام لتتابع الأحداث وإنما مجرد سلسلة من الأحداث الإلهية وليس العالم إلا مجرد مجموعة من الذرات التي تم ترتيبها بطريقة خاصة لا يعرفها إلا الله وكانت هذه الفلسفة أقرب إلى الفلسفة المسيحية المثالية والجبرية الهندوسية ولم تكن قريبة إلى إدراك الفعل ورد الفعل الذي هو أساس التاريخ . وإعتمدت فلسفة الاسلام

على الفكرة القائلة بأن جميع الأعمال والأحداث هي نتيجة المشيئة الإلهية وليست نتيجة التحولات أو ردود الفعل أو التناقضات أو تأثير حدث على حدث آخرون الله مسئول عن الوجود كله وهو المسئول عن فناءه وعلى هذا الأساس فإن تدوين التاريخ في الهند من قبل المسلمين مال إلى اعتقاد العرب المبكر بالعناية الإلهية وليس بنظرية ابن خلدون الذي جاء في عهد متأخر . وكان المؤرخ الهندي المسلم مثل الراكب في العرب الأخيرة من قطار ينظر من النافذة الخلفية لهذه العربفة فقط مما كان يعطي له فكرة عما حوله بصفة عامة ولكن دون رؤية الجهة التي كان القطار متجهاً إليها أو المنحنيات والتحويلات والثنيات الواقعة في الطريق . وبكلمات أخرى كان تدوين التاريخ في الهند مخالفاً لتدوينه عند العرب إذ كان ذا طابع ديني وليس طابعاً إنسانياً وذا هدف معين ومباشر وليس ذا علاقات متبادلة أو تقدمية .

ومع ذلك أصبح التاريخ في الهند خصيباً ومثمراً أكثر لدرجة استطاع معها كل من إلبويت ودأوسون نشر ملخص لأعمال المؤرخين المتوافرة في ثمانية مجلدات ضخمة . ويظهر أن ضياء الدين باراني كان مثلاً ممتازاً لمؤرخ ذي طابع عربي من العهد المبكر . إذ يقول :

«قضيت حياتي في التمعن الدقيق في الكتب القديمة والحديثة على

(٦) يزيد احترامنا للصالحين وكرهيتنا للأشرار .

(٧) انه أساس متين للحق يرسم لنا مسرحية الصراع بين الحق والباطل والعدل والظلم والطاعة والتمرد والطهارة والريضة .

وخلاصة القول فإن باراني كان مؤرخاً وواعظاً جريئاً متبعاً للتقاليد العربية وكتب التاريخ كأنما كانت له رسالة في الحياة وأصر على أنه يجب على المؤرخ ان يقول كلمة الحق دون خوف او تحيز . وحاول ان يحقق هدفه هذا بواسطة الحكم على السير والسلوكيات على ضوء القرآن الكريم ثم يحكم بذلك على الشخص بأنه ناجح أو فاشل وفقاً لأعماله . والتاريخ عنده ليس مجرد تسجيل للأحداث والوقائع والشخصيات بل أيضاً للقوانين واللوائح والوصايا والمبادئ والحلول وسمى التاريخ «ملك العلوم» .

وهناك مصدر عربي هام آخر كان ذا تأثير عظيم على الهند وهو هذا الكنز الوافر من الآداب التي قدمها المتصوفون وكان هذا الفرع من الآداب معاوناً في مجال الحركات الدينية والاجتماعية وفي تنمية وجهة النظر القائلة بأنسنة الفكرة . وتلقي الرسائل والخطب والكتابات الصوفية والأخلاقية التي تتضمن نظريات عن الكون والسلوك الانساني ، ضوءاً وافراً على التاريخ الفكري وقد تسربت تلك الأفكار الى صفوف الجماهير وكان هذا الأدب بمثابة مرآة تعكس لنا

السواء وفي دراسة العديد من الكتب في كافة العلوم بما فيها تفاسير القرآن والحديث والفقه والمذاهب الصوفية وقد شعرت بأنه لافائدة من دراسة الكتب الأخرى او في ممارسة أنشطة أخرى سوى علم التاريخ» . وعند باراني ، فإن التاريخ وسيلة لتقوية العقل والحكمة بواسطة دراسة خبرات الآخرين . وكان لديه بعض الأفكار عن تدوين التاريخ عند العرب وكان يعتقد بأن هناك واجبا اساسيا على المؤرخ هو ان يسجل الأحداث بصدق تام وأن يشعر مخلصاً بأن التاريخ له هدف هو إرشاد الانسانية الى الطريق المستقيم وكان يعتقد ان التاريخ يهدي الانسانية الى الله ويفيد السلطان في الحياة الدنيا والآخرة . وذكر باراني ، سبع فوائد لدراسة التاريخ :

(١) فهو يعرفنا على سير الرجال العظام والانبياء والرسل والزعماء الروحانيين والسلطين .

(٢) ويفتح أمامنا كنوز حكمة الماضي .

(٣) يحرضنا على الاعتماد على العقل والحكمة إعتداداً على الخبرات الماضية .

(٤) يسرى عنا في معاناتنا وأزماتنا ويجنبنا الانزعاج والقلق من الأخطار المجهولة والوهمية وفي نفس الوقت يحذرنا من الأخطار المتوقعة ويدفعنا للحفاظ على الثقة في النفس .

(٥) يشجع على الصبر والرضى .

التطور الروحي لفترة محددة وتشير أيضاً الى تنشيط الحركة الدينية في المجتمع الهندي وتحتوي هذه الكتابات على ثلاثة أقسام رئيسية هي تاريخ وأخلاق وقصص وروايات . وقد وظفت القصص والروايات لتعليم الاخلاق والسلوكيات بواسطة حكايات رمزية ذات مغزى اخلاقي وكان ذلك هو الهدف الأساسي من كتابة التاريخ الاسلامي . أما الادب فكان يتبع اسلوبا وعظما لتبجيل وتمجيد الله سبحانه وتعالى وفي نفس الوقت يعكس أوضاع الناس المعيشية وأفكارهم والتوترات التي كانت سائدة بينهم آنئذ . وأكد هذا الأدب على أهمية الليبرالية والانسانية والكونية والانتقائية والمساواة والتعبدية . وعاش أغلب المتصوفين كرجال عاديين في المجتمع ومارسوا مهنتهم العادية واذكر على سبيل المثال اسم الشيخ حامد الدين الذي كان صوفيا من درجة عالية لكنه عاش يمتن زراعة واصلاح الأرض البور ورفض قبول أرض خصبة عرضها عليه الملك التمش . وكانت لهجة المتصوفين في تقديم نصائحهم الأخلاقية قاطعة وصارمة . فيقول احدهم موبخا : «إذا استطعت ان تطير في الهواء فأنت ذبابة وإذا استطعت ان تمشي على الماء فأنت مجرد قشة لكن اذا كسبت قلباً فانك جدير بالاهتمام» . ويقال ان الملك «بلبن» أشار الى المؤرخ المتصوف منهاج الدين سراج قائلًا

بأنه لا يخاف الله ولا الملك وانما يخاف ضميره فقط .

وأدخل المسلمون الى الهند مواد تاريخية من النوع المسمى «وصية نامة» أو الوصايا التي تركها الحكام البارزون ورجال الدولة لخلفائهم وهي مبنية على خبرات وحكمة القدماء ومثال ذلك إرشادات الملك بلبن لإبنة الأمير محمد ومنها :

(١) لا تستهن بممارسة الحكم لأنه يحتاج الى جدية تامة ويجب على الحاكم ان يتصرف من موقع المسؤولية .

(٢) يجب ان يعكس قلب الحاكم مجد الله سبحانه وتعالى وهذا لن يكون ممكناً ان لم يكن القلب طاهراً ونقياً .

(٣) يكون الملك ملكاً «اذا وضع حداً للجور والاستبداد وحكم بالعدل والإنصاف .

(٤) يجب على الملك إلا يغضب الله بانغماسه في الترف .

(٥) الملك والشجاعة توأمان .

وكانت الوصايا تجرى على هذا النوال لتعليم الخلفاء فن الحكم ويرجع أساسها غالباً الى مبادئ الإسلام والفكر الإسلامي السياسي .

وخلاصة القول فإن تدوين التاريخ في عهد السلطنة يأخذ أربع صيغ وهي التاريخ العام والتاريخ المواعظي والمديح نثراً والتاريخ الفني .

ويشمل التاريخ العام في إطاره تاريخ الجزيرة العربية قبل مجيء

المعاصرة عن المؤسسات السياسية والاجتماعية وتختلف تماماً عن الأسلوب الذي كان سائداً آنذاك في كتابة التاريخ بالهند . وتشبه كتاباته روايات السياح الأوروبيين كما ركوبولو «وبرنير تاورنير» وهناك رحالة عربي آخر من دمشق اسمه «المرعشي» (١٢٩٧ - ١٣٤٨م) قام بزيارة الهند ووصف الحياة المعيشية والاجتماعية والاقتصادية فيها أما المسعودي وهو رحالة عربي آخر فإن كتاباته تلقى ضوءاً كاشفاً على الاحداث الهندية . وقد وفر لنا ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٤م) بعض المعلومات القيمة عن السلطان محمود الغزنوي ، وهناك مصدر خصب آخر يقدم تفاصيل هامة جدا عن غزو شهاب الدين غوري الأول للهند في عام ١١٥٢م هو كتابات كل من أبي الفداء وابن كثير . ومن بين المؤرخين العرب الذين تركوا أثراً على المؤرخين الهنود يمكن ذكر كل من الادريسي واليعقوبي وابي الفداء وابن اسحاق الفارسي والجاحظ وأبي زيد وعدد آخر من العلماء العرب الذين أثروا في المؤرخين الهنود بدرجة كبيرة :

واختلف المؤرخون الهنود كثيراً عن أسلوب العرب في بعض النواحي . فكان المؤرخون الهنود تابعين للسلطين والملوك الذين كانوا يساعدونهم فتخلو هؤلاء المؤرخون عن الموضوعية والحيادة وحرية التعليق وتقييم الأشخاص وتحليل الاحداث

الاسلام وتاريخ فارس وتاريخ الامبراطورية الرومانية وتاريخ الأنبياء والرسل قبل مجيء الاسلام وتاريخ بني أمية والعباسيين والأتراك في تسلسله الزمني .

وإتخذت بعض كتب التاريخ أسلوب اليعقوبي الذي استخدم المواد القديمة لكتابة تاريخ الانجيل ونقل عن الكتب الاغريقية ورفض أحداث العهد الأسطوري بفارس وفضلاً عن هذه الصيغ التاريخية توجد يوميات الرحالة ومن أشهرهم البيروني وابن بطوطة وهو من طنجة . وكان السلطان محمود الغزنوي مناصراً للبيروني (١٠٤٨م) وقد تميز بأسلوبه العلمي بين المؤلفات العربية الأخرى . وتعلم البيروني اللغة السنسكريتية وترجم عدداً من كتب الهنود الى العربية وكذلك بعض الكتب الاغريقية الى السنسكريتية . ومارس البحث في الآثار الشرقية بروح النقد التاريخي ودون نتائجه في كتابه المسمى «الآثار المتبقية من الأجيال الماضية» وكان ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨م) يحب الأسفار والسياحة وأمضى ٢٥ عاماً في أسفاره في كل من شمال افريقيا والجزيرة العربية وفارس والهند . ووصل ابن بطوطة الى الهند في عام ١٣٣٣ وقبل وظيفة عرضها عليه السلطين وتم إيفاده في سفارة الى الصين وسجل هذا السائح العالمي كثيراً من الأحداث في عهده وتشكل كتاباته كنزاً قيماً للمعلومات

وأوضاعها وأصبح ما يوجد في كتاباتهم هو معلومات سياسية روتينية وأغلبها تثقيفية ووصفية وتصويرية وفقاً للترتيب الزمني دون ترابط وكان لهذا آثار خطيرة فقد تسبب في بعض الخراب والدمار وكان حرصهم شديداً على تصوير السلاطين بصورة مثالية في الاخلاق والتقى والورع والدفاع عن الدين والإيمان وكانت هذه الصفات بعيدة كل البعد عن الحقيقة . فلم ينتشر الاسلام في الهند بسبب جهد هؤلاء السلاطين بالعكس فقد أثار الاسلام عداءهم بسبب تصرفاتهم الظالمة وأخلاقهم السيئة .

وانما انتشر الاسلام في الهند بجهود المتصوفين الذين قدموا نماذج رائعة للإسلام في حياتهم الشخصية .

ولم يكن بالإمكان ان يحب الناس مثلاً سلطاناً طاغياً مثل علاء الدين او ملكاً غير مؤهل مثل كيقباز او حاكماً متردداً مثل محمد بن تغلق او ملكاً متعصباً مثل فيروز شاه لكن الصوفيين من نظام الدين أوليا الى الشاه ولي الله كرسوا حياتهم للإنسانية والليبرالية وعبادة الله بعزم وثبات وهكذا اجتذبوا عامة الناس خاصة من الطبقات الفقيرة الذين كانوا يعانون بسبب النظام الطبقي السائد والذين اقبلوا على إعتناق الاسلام للتخلص من الطبقة . فمن الواضح ان مدح المؤرخين للسلاطين بأنهم عمد الاسلام ودعائه كان في غير محله بل

كان مخالفاً تماماً للحقيقة .

وفي ولاية أوتار براديش حيث حكم المسلمون لمدة ٧٠٠ سنة فإن النسبة المئوية لعدداهم لاتزال أقل من ٢٠٪ وهذا اكبر دليل يثبت زيف بعض المؤرخين الفرس .

فقد كان لدى هؤلاء المؤرخين ثلاثة أهداف ،

أولاً : كانت هناك ضرورة سياسية لكسب تأييد الجالية الاسلامية الصغيرة في ذلك الوقت . وكانت هذه الأقلية متدنية للغاية واقتضى ذلك محاولة اقناعهم بأن السلطان كان يبذل كل ما في وسعه وفقاً لتعاليم القرآن الكريم .

وثانياً : كانت هناك حاجة عسكرية لان الانتصارات العسكرية في الماضي تحققت باسم الاسلام ونظراً لحساسية موضوع الاسلام فقد استغله القادة العسكريون الهنود المسلمون لمصلحتهم .

وثالثاً : كانت هناك حاجة قانونية ودستورية لان الفقه الاسلامي تطلب من رئيس الدولة ان يكون مسلماً متديناً تقياً يقوم بتطبيق احكام الاسلام .

ومع مجيء المغول الى الهند تبدأ المرحلة الثانية في تدوين التاريخ بالسند ففي هذه المرحلة نشهد تغييراً جذرياً في معالجة التاريخ من حيث وجهة النظر والأسلوب والموضوع . وأصبحت كتابة التاريخ في عصر المغول أكثر نضجاً وموضوعية وإتخذ

بالبوفرة صيغة جديدة بتناوله موضوع المؤسسات الاجتماعية ونمو الحضارة ونشوء الأفكار المتنوعة كما مارس الكتابة أشخاص من طبقات مختلفة وليس فقط من المؤرخين المحترفين بل ساهم في ذلك صانعو التاريخ أيضاً والأباطرة أنفسهم وكان إنتاجهم مكوناً من كتابات تاريخية جديدة متضمنة سيرتهم الذاتية وهكذا أصبحت مصدراً هاماً لمعلومات يوثق بها ولا يوجد في المؤلفات التركية بأكملها كتاب ما يقارن بـ «ترك بابري» من حيث روعة الانشاء والمادة العلمية والحكم على الأشخاص والأحداث . وكان الإمبراطور جيهان جير صادقاً ومخلصاً في مؤلفه المسمى «ترك جيهان جيري» لدرجة الاعتراف بأخطائه وعيوبه وسلبياته . وكان المناخ الذهني والفكري منفتحاً لدرجة ان احد الملاوات مثل عبدالقادر البدايوني انتقد تصرفات الامبراطور اكبر نقداً شديداً دون ان يترتب على ذلك عواقب وخيمة ولا يوجد كتاب في العالم كله من بين الكتب التي أرخت لذلك العهد أحسن وأجود من كتاب «ابو الفضل» الذي دون تاريخاً شاملاً لمؤسسات الامبراطور اكبر بما فيها المؤسسات السياسية والدينية والاجتماعية والتجارية والزراعية للشعب الهندي كله . وقد بلغت كتابة التاريخ في ذلك العهد ذروة الكمال والروعة . وتتسم كتابة التاريخ لذلك العهد

بالوفرة كيفاً وكماً ليس في السير الذاتية والمذكرات اليومية فحسب بل في التاريخ العام والمتخصص أيضاً . وتتوفر لدينا عن ذلك العهد كميات كبيرة من السجلات والوثائق الرسمية والمسكوكات والنقوش والرسائل الخاصة والمستندات والأحكام القضائية وروايات الرحالة التي تتضمن كنوزاً قيمة من المعلومات وهكذا نجد الحصاد التاريخي لعهد المغول مثمراً للغاية . ومن ناحية المجالات التي تمت تغطيتها فهي تشمل النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية بكافة تفاصيلها مما جعل التاريخ ذا ارتباط حميم بالحياة وأقرب الى الحقيقة ومتسماً بالانسانية كما استخدم المؤرخون أساليب جديدة غير تقليدية كالمذكرات واليوميات والملاحظات... الخ ونشهد تحسناً ملموساً في كتابة التاريخ كأنما عاد ابن رشد وابن خلدون من جديد ليلهما كتابات المؤرخين روحاً جديداً . وأغلب المؤرخين في عهد المغول جمعوا المواد التاريخية بعد عناء شديد واستخدموها بصورة منطقية وترك لنا اكبرهم شأنًا وهو أبو الفضل كتاباً يشبه موسوعة شاملة . وقد بدأ الإمبراطور بابر عهد كتابة المذكرات الشخصية وتبعته حتى بعض الأميرات مثل غلبدن بيجوم وهي بنت بابر وكتبت «همايون نامه» الذي يعطى لنا فرصة للتأمل في الحالات النفسية

في الانسان الدهشة . وكان الغرض
الاهلي منها ان يعلم الانسان ما يجب
ان يعلمه ويفهم ما يجب ان يفعله
ويعرف ما يجب ان يقدره ويدرك
ما يجب ان يحترس منه وكان الهدف
هو تعليم الانسانية كيف تقوم بتقييم
الماضي لتحسين الحاضر والتنبؤ
بالمستقبل .

وألقى الانسان نظرة على وحشيته
الماضية لكنه تطلع في نفس الوقت الى
إمكان تحويل الغابة الى جنة وأن على
الانسان ألا ينظر فقط الى القمم
العالية بل ينظر أيضاً الى المنخفضات
تحت قدميه كي يمهّد الطريق ليجعل
السّير على درب الحياة هادفاً وأمناً .
إن رؤية الاسلام للتاريخ تجعله جهازاً
تربوياً ينظم ويفسر من جديد حصيلة
الخبرات الانسانية بصورة مفيدة
وتكشف عن معان وأفكار جديدة
ناجمة عن تلك الخبرات وتزيد من
قدراته على تسيير إتجاهات التجارب
المقبلة . وتعرض هذه الرؤية على
الانسانية إنضباطاً فكرياً مما
يساعدها على مواجهة المشاكل
الجديدة بالتوازن والحكمة لا بالعاطفة
والسطحية . وإذا فهم الانسان كيف
تعرض للمعاناة في الماضي بسبب
أخطائه فيمكن له ان يصحح مساره .

البروفيسور الشيخ علي
رئيس جامعة جوا بالهند

للشخصيات البارزة في الامبراطورية .
ويعتبر كتاب «مذكرات» جيهانجير كتاباً
نادراً يجدر أن يقلده الآخرون ،
وتشبه رسائل «اورنك زيب» شاشة
رادار تعكس ملامح شخصية
الإمبراطور بصورة دقيقة وكذلك نجد
السجلات الادارية والأحكام الملكية
والمستندات والمسكوكات والأختام
والجرائد الرسمية والموجزات
والرسائل والنقوش وأشياء أخرى
بالاضافة الى التاريخ الخاص
الشخصي والبيانات المتعلقة
بالحكومات المركزية وحكومات
الولايات وكلها تشكل مصدراً وافراً
ضخماً لم تستطع أجيال الباحثين
الاستفادة منه كلية حتى الآن .

وختاماً نستطيع ان نقول ان
الشموع التي اناها المؤرخون العرب
اشعلت مصباح العلم والمعرفة في
الهند فانتشرت اضواؤه على كافة
مجالات الحياة الانسانية . وقد
استخدم التاريخ كأداة لنشر الخير .

وأصبح التاريخ مقياساً لتقييم التقدم
الانساني كالفلسفة وعلم النفس فيما
بعد لأنه شبه الحياة بالمرحبة
يشاهدها الانسان كمتفرج إلا أن هذه
المرحبة كانت مقلقة ومتعبة وأثارت